الفصل التَّاسع

لم يخطرل"ياسين" أنَّه ثمَّة آخريتابع ما يدور في الخفاء, ويقرؤه جيدًا, رغم النَّظارة الطِّبية السَّميكة التي ترتدي, والحزن المعشش في زوايا النَّفس, إنَّه نفس الشَّخص الَّذي يخشاه العجوز, ويرهب سطوته. السَّيدة "جيهان" تعلم بتطلع الفتاة, وخفقان القلب, وأحلام "ياسين" المتغافل, عن عمد ووعي, عمَّا يجري ويدور.

الغائب الوحيد عن الحدث, مع أنَّه قلب المشهد وعموده الفقري؛ هو"فايز".

رشفت "جيهان" من قدح الشَّاي, ترمق ابنها خُلسة, تستشف ما بداخله, وإلى أي مدى يدرك ما يحاك له من شِراك "ياسين" الماكر.

عيناه الثَّابتتان على العدم نبأتها بكمّ الشُّرود الَّذي يعتريه, مغبة تجربته العصيبة في بيت العناكب! في رأس "فايز" طنين زنابيرتهاجم فراشة رقيقة, فلم يمر طويل وقت على تجربة أمن الدَّولة القاسية, وما تلاها من صفعة الحزب المدوية, ما زال في مرحلة النَّقاهة, يعالج جاهدًا سموم التَّجربة, وما وسمت به الرُّوح الرَّهيفة من ألم وجراح.

التَّجارب العنيفة تُحيل الرَّوح إلى صهد, إلى لهيب مؤجج! وما زال "فايز" يشعر بالجذوة في جوفه, في بؤرة القلب! أقصى أمانيه أن يصير كما البركان في تأججه؛ ينفخ النَّفخة من الحمم, فيهمد ويستكين بعض الوقت.

"جيهان", بقلب الأم, تُلِم بمعاناة "فايز" تمام الإلمام, وتتقطع له, وبفطنة الأنثى علمت, ومنذ الوهلة الأولى, أنَّه ثمَّة من تنتحب روحه ألمًا من أجله. "جيهان" على يقين أنَّ "طاهرة" ابنة "ياسين" غارقة في حب "فايز", ولم تكن قوة على وجه الأرض لتزحزحها عن هذا المعتقد, وكثيرًا ما احتارت الأم في تنبيه الابن الغافل, ودفعه للاحتراز في التَّعامل مع "طاهرة", وألا يغذي جذوة الحب

في قلب الشَّابة بمزيد من الحطب.

كم تتمنى أن يكون جافًا في تعاملاته مع الآخرين بعض الشَّيء, ولا يكون بهذه الرِّقة وهذه الطِّيبة مع الخدم, ومع "طاهرة" على وجه الخصوص! كيف تفتح معه الحديث, كيف تنبهه! وهي أيضًا تعلم يقينًا, أنَّ لا شيئًا بباله, ولا يخطر له ما "طاهرة" غارقة فيه حتى النُّخاع!

تخاف إن نبهته؛ أن تزجه للخطر, فالفتاة جميلة, فاتنة, رغم كونها خادمة, ابنة خادم! تخاف أن تشعل بيديها فتيل اللَّهب في قلبه, وهي التي عاهدت ابنها يفكر بطريقة مغايرة عن الجميع, فهو لن يكترث لفوارق, ولن يقف في طريقه حائل إذا ما خفق قلبه بحب الفتاة الفاتنة. وفي ذات الوقت, تخاف إن صمتت يأتيه السَّهم في غفلة منها, فتندم حيث لا ينفع النَّدم.

واليوم, وأمس, وقبل أمس, ومنذ عودته من بيت العناكب, وطاهرة تتابعه بهذا الشَّكل المهووس المستفزل"جيهان", تسترق السَّمع والبصر لخطاه أينما حل!

تمتمت "جيهان" بعد صمت طال, تعتريها حيرة, وبوادر مرض عكر صفاء العينين شيئًا كثيرًا:

- "فايز"!

التَّموجات على صفحة الوجه, نبأت "فايز" بأنَّ ثمَّة ما يشغل الأم القوية. ترك قدح الشَّاي وانتبه, قال بصوت خافت بالكاد يُسمع:

- نعم!

البسمة التي طفرت على شفتيها شاحبة, يسكنها الموات. تمتمت:

- يوجد أمر!

رغمًا عنه, تبسم في المقابل. لم يرغبشة المرض المعشش في عيني الأم, ولكنه رأى زخم كلام يتكأكأ ويحجب ما سواه:

- عيناكِ تشي بكثير كلام يا أمي!

رمقت "طاهرة" و"ياسين" المصلوبين عند الشُّرفة بُغية التَّنظيف, قبل أن تستدير تواجهه, فاعتدل "فايز" هو الآخر معطيًا لها سمعيه.

في البدء خرج صوتها مضطربًا على غير عادته, وما لبث أن استقام إلى طبيعته,

وإن ظلت حشرجة المرض تغيّر من نبرته شيئًا طفيفًا:

- حياتك لا تعجبني يا "فايز"! الحياة ليست على هذا النَّحو الَّذي تظن! الحياة قاسية! لا مكان فيها للرحماء! أنت رحيم القلب يا "فايز"! رحيم أكثر ممَّا يجب! النَّاس يستغربونك! ينكرونك! هم غير معتادين على أمثالك! أنت بالنِّسبة لهم شخص غامض! غريب!

تنهد "فايز", وغامت عيناه:

- تقصدين أمر القبض علي يا أمي؟!

أومأت برأسها:

- هذا شيء من أشياء!

وضحكت ضحكة خرجت متقطعة؛ تُداري بها التَّهدج والانفعال, ثُمَّ أطلقت تنهيدة حارة, واستطردت:

- الحياة خلقها اللَّه على هذا النَّحو لحكمة! أرادها سبحانه محنة, ليكون الجزاء على قدر الرِّضا والصَّبر!

- لا أفهم يا أمي!

تابعت "جيهان" وكأنَّها لم تسمع, وقد عاود صوتها التَّهدج على الرَّغم منها:

- وكثيرًا ما تجد أغنياء فاحشي الغنى معتلين في صحتهم, وفقراء معدمين يتمتعون بوافر العافية.. وفيها الجميل, وفيها القبيح, والسَّعيد, والحزين, كل حباه اللَّه بشيء طيب, وله أيضًا بلوى, ولا أحد يمتلك كل شيء يا بني, لا أحد صدقني!

أمسك "فايز" يدها, منتبهًا لارتعاش خلجاتها واضطرابها بشكل لم يعهده عليها:

- أمي! ترفقي بنفسك! أجدك لست على ما يرام!

تمتمت "جيهان", بعدما رشفت قطرات من الشَّاي:

- أنا بخير! كل ما في الأمر أنني خائفة عليك!

- وماذا فعلت لتقولي هذا؟!

ربتت يده, وأخذت نفسًا:

- منحك اللَّه الغنى, والطِّيبة أيضًا! ولكنَّ طيبتك زائدة عن الحد, هي ما

زجت بك إلى أمن الدَّولة!

سكتت هنيهات قبل أن تستطرد:

- ينقصك أمر مهم يا "فايز"!

- ما هو يا أمي؟!

شدت على يده لينتبه أكثر:

- قدر من الفطنة يا بني! قدر من التَّريث العاقل المتزن؛ تَزود به عن نفسك الضَّرر, وتتقي به سهام الأشرار!

صمتت تلتقط أنفاسها المتهدجة, وترمق "طاهرة" مجددًا:

- "طاهرة" يا "فايز"!

انتبه "فايز", وقد بانت على وجهه الدَّهشة:

- ما بها يا أمي؟!

تملته قليلًا, ثُمَّ تشجعت:

- ابنة "ياسين" تحبك يا "فايز"!

كان الخبر مفاجأة هبطت عليه, تمتم دونما وعي:

- "طاهرة" تحبني!

انتصبت سبابتها بطريقة نمَّت عن تأكد شديد:

- وليس حبًا عاديًا! "طاهرة" ابنة "ياسين" متيمة بك, غارقة في حبك حتى النُّخاع!

وجزت على أسنانها بغيظ:

- و"ياسين" يعلم, ويتغافل!

اربد وجهه, وبدا عليه الارتباك الشَّديد:

- ولكنني!

رشفت من قدح الشَّاي, ترطب حلقها الَّذي جف, ترمقه بنظراتها المعتلة من أسفل أهدابها الطَّويلة الذَّابلة:

- أعلم أنَّك لا تعلم شيئًا ممَّا يدور في الخفاء, وأنَّك لم تتعمد تحريك قلب الفتاة إليك, ولكنَّك أيضًا المسئول الأول والأخير في هذا الأمر!

أشاح "فايز" بيديه, لا يدري ما يقول! وخيم الصَّمت!

وأخيرًا قال:

- وما ذنبي؟!
- تصرفاتك هي ما فعلت!
- كيف؟!
- ودك, طيبتك, عفويتك, تباسطك, هذه كلها أمور ذائدة عن الحد! لا تليق ولا تصح بين سيد وخدم, وها هي النَّتيجة: صرت مطمعًا لأمثال "طاهرة" و"ياسين"!
- لا أفهم!
- مشكلتك الأبدية يا "فايز" أنَّك لم تدرك يومًا من أنت!
- أنا إنسان –يا أمي- هذا كل ما في الأمر!

ضحكت بطريقة عجت بالمرارة:

- وهنا لب القضية! دائمًا ما تنسى أنَّك شاب, وسيم, غني, جدودك بشوات وبكوات, كل هذا يجب أن يكون له دورًا في تكوينك, يجب أن يكون له اعتبارًا يعطيك إحساسًا بالذات!

وظهرت العصبية جلية في توتر كلماتها وقسمات وجهها, فبدت أكثر قربًا من طبيعتها التي يعلمها "فايز":

- ولكنَّك للآسف غير هذا تمامًا, أنت متباسط لأبعد الحدود, تداعب الخدم, وتأكل معهم, وتعطيهم هدايا بمناسبة ومن غير, أنت كسرت الحواجز فتوهمت طاهر أنَّك صرت واحدًا منهم!
- أنا مفاجئ ممَّا تقولين يا أمي, وأنا حقيقة لا أكن عاطفة خاصة لأحد, خدم القصر كلهم عندي سواء: "طاهرة", و"ياسين", و"عثمان", و"محفوظ", و"زكية" وغيرهم, جميعهم سواسية كأسنان المشط, أتعامل مع الجميع من منطلق إنساني بحت!

نظر في عينيها, وتابع:

- أنسيتِ يا أمي أنني اشتراكي التَّكوين؟!

أومأت "جيهان" برأسها, تؤمِّن على حديثه بمرارة طافحة, وابتسامة ماجت بسخرية سوداء, فأردف متغافلًا عن حالها:

- وبغض النَّظر عن طريقة تعاملي مع الآخرين, فإن أمور القلوب لا تقاس على هذا النَّحو, القلوب غالبًا ما تخفق بلا منطق معلوم!

لم تُسعفها حالتها الصِّحية لتضحك ضحكتها العفية السَّاخرة, فسعلت بعض مرات, لتقول بصوت خرج مختنقًا, لم يخلو من تهكم:

- في حالة هؤلاء الخلق؛ القلوب تخفق بمنطق معلوم, الجاه والمال يجعلها تخفق! أنت من لا يعيش في الدُّنيا!
- لماذا أستشعر لومك في أمر لا ذنب لي فيه؟!
- لو أنَّك ممَّن يضعون الحواجز, ويقيمون الحدود, ما انشغلت بك ابنة "ياسين"! وما تطلعت إلى سماءٍ تعلوها بسنوات ضوئية!
- ربما الأمر برمته لا يعدو مجرد هواجس! مجرد عاطفة بريئة لا ترتقي لما ذهب عقلك إليه يا أمي!

ضحكت "جيهان" باستخفاف مشوب بسخرية:

- الأمر واضح كالشَّمس, لا يحتاج إلى كثير ذكاء!

صمتت هنيهة تجاهد لتسيطر على انفعالها:

- و"ياسين" يعلم! نظرة عينيه الماكرة تؤكد علمه!

ألقت "جيهان" نظرة ناقمة على "ياسين" وابنته, وهما ما زالا متسمرين خلف الزُّجاج الَّذي ينظفان, قبل أن تتابع:

- "ياسين" يتعشم أن ينكب ابن البشوات على وجهه, ويقع في غرام ابنته الجميلة, فيتحول من خادم إلى مالك للقصر!

والتَّفتت تجاهه, في غيظ شديد لم تعبأ بمداراته, وقد تغلبت ثورتها على غشاوة المرض في عينيها؛ فصارت أكثر بريقًا ونفاذًا, كما لو أنَّها في تمام الصِّحة وأوج العافية, وبدت في تحفزها وعصبيتها, أشبه ما يكون بقطة شرسة في وضع هجوم, تذود عن صغيرها من الأشرار:

- وإن سألتني عن نفسي, فإنني أجدك تفوق الجميع رعونة ونزق! أجدك لا تتورع عن ارتكاب أي حماقة! ولهذا ترددت في محادثتك بما أرى وأتابع, ولكنني رأيت أن أعالج الأمر بالمواجهة, بدلًا من أن تأتيني الضَّربة من حيث لا أحتسب, فأجدك يومًا متزوجًا بها!

لم يتمالك "فايز" نفسه من الضَّحك, لم يسكته سوى نوبة السُّعال الحادة التي داهمتها, واحتقن وجهها لها بشدة, متحولًا لونه شاهق البياض إلى وردي.
وعندما هدأت استطردت باستماتة مقاتل:

- يوجد صِنف من الرِّجال, يخفق قلبه بمجرد طرق الباب, فيجري وقد سال لعابه, يفتح للطارق, دونما اعتبار لشيء! أنا أعلمُ النَّاس بهذا الصِّنف, وأشد من اكتويت من روعنته ونزقه, ولن أسمح بتكرار الأمر, لن أسمح, هل تفهم ما أقول؟!

***

- ما حكاية "طاهرة"؟

انتفض "ياسين" للصوت الَّذي باغته, كان جالسًا في شقته بأعلى البناية القديمة المنزوية, يرشف شايًا ثقيلًا, ويسحب أنفاس الدُّخان ببطء من سجائره اللَّف, مطفئًا الأنوار, ولا بصيص ضوء إلا جمرة السِّيجارة, والنُّجوم المتلألئة في قطعة السَّماء المطلة من النَّافذة.

وعلى شذرات الضَّوء المنبعث من الخارج, فتح عينيه الضَّيقتين على اتساعهما, مبحلقًا في الشُّرطي الَّذي انتصب على رأسه دونما إنذار, ودونما يلج من الباب الموصد! "ياسين" عرفه من صوته, متأكدًا هذه المرة من هويته الحقيقية, ومن كونه شبح "فايز" المرابض في القصر, قد جاء يتقصى الأخبار, يريد الاستدلال على قاتله لينتقم, ويخلص من حالته العالقة!

حكايات قديمة سمعها "ياسين" عن حيرة الأشباح, وكونهم يهيمون حيارى في دنيا البشر, ريثما الانتقام ممَّن سلبهم الحياة.

شيءٌ من غِبطة تملَّك "ياسين"؛ للحيرة الغارق فيها الشَّبح, والتَّأرجح المقيت الَّذي يبغضه. ورغم احترازه من المواجهة وقد باتت وشيكة, وعاقبتها وقد تكون وخيمة- فقد ظهر رابط الجأش, بشكل فاجأه هو شخصيًا, ما أربك الشَّبح في المقابل, وجعله يقف كالصَّنم, لا يدري من أين يبدأ, ولا ماذا يقول!

وضحك "ياسين" بشكل هستيري, كما المجنون, ما جعل الشَّبح المتمثل في هيئة الشُّرطي السَّمين يقطب جبينه, ويزيد توتره, ويتسمر لا يحر خِطابًا.

وقال "ياسين" بعدما هدأ:

- دعك من هذا, أنا أعرفك!

وكما السِّحر, تحول الشَّبح من هيئة الشُّرطي إلى هيئة "فايز".

بهت "ياسين" من التَّحول رغم يقينه: زاغت عيناه, انفلتت شهقة, وتسارعت نبضات قلبه بشكل جنوني!

بعدما هدأ, انطلق يعوي بذات الضَّحك الهستيري العجيب.

في يد "ياسين" سيجارة "مارلبورو" تتقلص, وعلى الحائط عُلقت صورة "طاهرة" الشَّابة الجميلة, بها طيف من روحه, يلتمع بعينها حزن ارتفع بالجمال فتنة, وبجوار السَّرير ربضت بندقية حديثة ذات منظار!

الشَّبح مرتبك, لا يستوعب ما يدور, وهذا التَّحول المريب في شخصية "ياسين", شديد الارتعاب سابقًا! والبندقية ذات المنظار تدفع به دفعًا إلى دائرة الشَّك, وسجائره "المارلبورو"!

أعاد السُّؤال بعدما صمت طويلًا:

- ما حكاية "طاهرة"؟!

أشار "ياسين" إلى صورة الحائط الحزينة, وغامت عيناه بالحزن:

- هذا ما تبقى منها!

الشَّبح, ورغم بعثرة ذهنه, يستشعر أنَّه ثمَّة في الطَّريق ما يلتئم, ولربما نُسجت حقيقة "فايز" وتخلقت في التَّو, ولهذا, فهو على أحر من الجمر, يترقب انفكاك عُقدة لسان "ياسين", وانفجار بركان الحزن الكامن داخله, فتنكب حمم الحقيقة وتندلق, فتروي أرضه العَطشى!

طوال الأيام الفائتة, ومنذ مبعثه بالحياة, و"طاهرة" الجميلة تطل برأسها من ثنايا الذَّاكرة المتكلسة, حزينة منكسرة, تشكو العينين ولا يبوح اللِّسان, تواتيه بلا توقيت شذرات من قصتها, حتى أنَّه صار يعلم من أمرها الكثير, ما يُمكِّن العقل من صُنع الحبكة والنِّهاية, ولكنَّ أيامه العصيبة بالحياة علمته أنَّه ثمَّة أمور لا تحتمل التَّذاكي والتَّخمين, لابد للمرء من الإصغاء للحقيقة بملء سمعيه, بكل جوانحه, تفاصيل ما حدث, وما كان, بشكل محدد واضح.

بكل الحُرقة في صدره قال:

- أخبرني عن "طاهرة"!

على ضوء الحجرة الشَّحيح, ملأ "ياسين" عينيه من "طاهرة", النَّاظرة بحزن إلى الدُّنيا, من خلف الإطار الذهبي الَّذي جمدها وسجنها:

- "طاهرة" ذهبت! ماتت!

الصَّرخة المدوية, التي اخترقت الشَّبح مرارًا في خلوته, دائمًا ما تأتي مقرونة بصوت "ياسين" الهلع, يهتف باسم ابنته "طاهرة"!

- وكيف ماتت؟!

سمع أشياء تتكسر في صدر "ياسين", كَرْكَبة وأنين وتَهَشُّمْ, ثُمَّ تحولت الأصوات إلى نحيب مكتوم, تلاه صمت!

عاود الشَّبح إطلاق القذيفة, لا مفر من نزع الإجابة من هذا القلب المكلوم!

اندفع "ياسين" بشكل مفاجئ, يريد طرحه, وبرحه ضربًا, والإجهاز عليه, فاخترق الهواء, وتعثر وسقط, وجعل ينشج, يبتلع دموعه المالحة, ويتكلم بصوت مشروخ بالبكاء والحزن:

-"طاهرة" ماتت! انتحرت! ألقت نفسها من أعلى القصر! كُسرت رقبتها, وماتت في اللَّحظة! رأيت وقوفها بالشُّرفة العلوية للقصر! علمت ما عزمت عليه! عويت لترجع! لم تعبأ! همست فقط بنظرة وداع, وهوت! سقطت تحت قدمي السَّيدة الكبيرة! السَّيدة "جيهان" من قتلتها!

انعقد حاجبي الشَّبح لهذا الاتهام, فتمتم دونما وعي:

- أمي!

عوى "ياسين":

- آآآآه.

- ما دخل أمي بالأمر؟!

نشج "ياسين":

- السَّيدة الكبيرة داست كرامتها وكرامتي!! صفعتها وصفعت شيبتي أمامها!!

صمت هنيهة يلتقط أنفاسه:

- وأمهلتنا يومًا لمغادرة القصر!
- لماذا كل هذا؟!

فح "ياسين" كما ثعبان يتميز من الألم والغيظ:

- لأن الخادمة أحبت سيدها!

الطَّريقة التي يتحدث بها "ياسين" لا تدع مجالًا للشك, وأنَّه يقول الحقيقة, وما حدث بالفعل.

- وأين كنت أنا من هذا؟! أقصد أين كان "فايز" من هذا؟!

كشَّر "ياسين" عن أنيابه بغيظ بانت له نواجذه, وطفحت الكراهية المقيتة على وجهه المتغضن:

- "فايز" كان تائهًا في عالمه!
- أي عالم؟!
- عالم الأوهام! الخزعبلات! الكتب والمكتبة! "فايز" هذا أكرهه من كل قلبي! كان ضيف شرف على الحياة, لم يدر يومًا بما يدور من حوله!

شعر الشَّبح بالضَّجيج يتنامى في رأسه, وبقدميه لا تكادان تحملانه, تهاوى بجوار "ياسين", وقال:

- احكِ لي!

نفض "ياسين" حزنه, كأنَّه لم يكن, ومال إليه يرمقه بتشف شرير, اتسعت له فتحتا منخاره:

- تريد أن تستريح؟!

هز الشَّبح رأسه المثقل بالألم:

- نعم!

التمعت نظرة خبث في عيني العجوز وهو يسأل:

- أن تعلم قاتلك!
- لأفرغ من مهمتي, وأذهب من هذا العالم القميء! أنا لا أصلح لهذا العالم, لا امتلك أدواته! أنا تائه منذ قدومي, أتخبط في طريق مظلم! أنتم أيها البشر تمتلكون جلدًا ثخينًا, وأنا كيانٌ هش لا أحتمل! لا أحتمل ظلمكم, لا أحتمل تعاستكم, لا أحتمل حزنكم! أرضكم أرض

شقاء, وحياتكم بؤس ونكد!

عوى "ياسين" يقاطعه كمن لدغته أفعى:

- أنت "فايز"!

تراجع الشَّبح خطوة قلقًا:

- أنا شبحه!

هز "ياسين" رأسه عنادًا, واشتعلت عيناه جنونًا:

- أنت "فايز" بشحمه ولحمه! هذه كلماته العجيبة! هذه نظرات عينيه التَّائهة! بؤسه الدَّائم على وجهه! كراهيته للحياة! رغبته في المغادرة من الدُّنيا! أنت "فايز"! أنت "فايز"! أنت "فايز"!

وانتفض "ياسين" بشكل مفاجئ, وكبس مفتاح الكهرباء, فتلألأ الضَّوء بالحجرة, واندلعت صرخات الشَّبح عاويًا من الألم, فيما يختفي ويتلاشى, كأنَّه لم يكن منذ برهة.

***

تنتفض من المقعد, خلف مكتبك بالشَّركة, تجلس مواجهًا لها, مرتبكًا أنت, جبينك ينز بالعرق, خلجاتك مضطربة, أناملك ترتعش, ما تريد قوله جديد عليك, لم تعتده, فكرة الاعتراف تؤرقك, تربكك, رغم خيباتك لم تعرف يومًا موقف الضَّعف, أنت معتد بنفسك لأبعد الحدود, صلب درجة الكسر, وإن كان الانكسار لحبيب! أن تُعري مشاعرك وتعرضها, أن تبدو بلحمك ودمك وعقلك ومشاعرك كما بضاعة, عليك أن تمتلك مهارة العرض, وأن تعايش جرأة الموقف! بشاعة التَّصور توجعك, "مها" ليست بحاجة لهذا برمته, ليست بحاجة لكلماتك لتعرف, ولا انكسارك المزعوم, ولا لحظات التَّرقب التي ستنهشك حتمًا! "مها" لن تتركك مرتبكًا في قراءة خلجات وجهها الجميل قبلما تفوه بالرَّد! "مها" تعرف ما تود بوحه, دونما قول, عيناها تقرؤك, كما عيناك تقرؤها! تحبك كما تحبها!!

يهتف بك هاتف يعترض, يزجرك, يقول أنَّ المبادرة, المصارحة, هو أمر لا مهرب منه, الأنثى شغوفة به, وتنتظره! الاعتراف الَّذي تهرب من رهبة موقفه, هو انقباضات الرَّحم التي تنقل جنين الحب من رحم المشاعر والحياة التَّحتية

إلى النُّور والفوقية, إلى كيان يتنفس ويعيش. الاعتراف وثيقة مكتوبة باتصال القلوب وجنس الخفق. وأنت, كما كل الذكور, عليك بالإقدام, والمبادرة, فهذا الموقف يُشبعها كأنثى, وهي تريده, أن تشعر بأنَّ هذا الَّذي يعشقها, يضع قلبه تحت قدميها, بضاعته, نفسه, ولها أن تقبل أو ترفض, أن تتمنع إن أرادت, أن تتصنع الدَّلال إن أحبت, فلم تستكثر هذا عليها!

تتذكر هذه المرة أنَّ المصباح على واجهة الشَّركة لا يصلح لمفتتح الحديث, فتبحث جاهدًا عن مدخل يسعفك!

أخيرًا تتكلم؛ عيناك زائغة, حلقك جاف:

- عندي ما أريد قوله!

في نفسك, تسخر من نفسك, من مقدماتك البلهاء, من عرق جبينك الَّذي تسرب لعينيك وأحرقك, وزجاج النَّظارة الَّذي تغبش بالبخر في هذا التَّوقيت الحرج, تنفسك الثَّقيل, قولونك العصبي الَّذي بدأ ينقبض يطلب الحمام.

تظنها تعلم ما يجتاحك, تقرؤك, كما دائمًا تقرؤك, وها هي تشجعك بومضات عينيها, إسبال جفنيها, انبساط جبينها الوردي, تفتح الورد في خديها.

تبتلع غصة, وتردف:

- شيء خطير!

ترنو إليك, وعيناها تلتمع بوميض الذكاء, وميض من يعلم ويغفو. مكر الأنثى لم تسلم منه, يظهر في استقبالها لذبذبة بثك, تثبت بجدارة أنَّها ابنة من بنات حواء:

- كلي أذان صاغية!

تستشعر أنَّها شغوفة بالسَّمع, أن تراك تتداعى؛ بشموخك, واعتدادك! أن يذوب جبل الثَّلج تحت قدميها.

تكاد تحيد لتسأل: "لم قسوتك؟!", غير أنَّ الشَّوط الَّذي قطعت, منحك دفقه من شجاعة, لتقول كلمة وحيدة يتيمة, خرجت مشحونة بالمعاناة:

- إني!

تبتسم مشجعة, تومئ برأسها.
تزفر, تراودك رغبة النَّكوص, تقول بنبرة بها طيف حدة, تنفض فيها بعض ما يعتريك من توتر وقلق:
- بالتَّأكيد تشعرين!

تضحك أجمل ضحكاتها.
رنين الفضة الَّذي خرج صداحًا من فمها سبب لك قشعريرة.
تهز رأسها, وتهمس بأكثر أصواتها رهفًا ورقة:
- أشعر!

ينتفض القلب الغارق في بركة القلق, يجدد رئتيه بالهواء, وبصوت مختنق من شدة التَّهدج تسأل:

- حقًا؟!

تومئ لك ذات الإيماءة.
تميل تجاهها, تسأل بلهفة:
- وأنتِ؟

تنتفض غزالة ماكرة, تراوغ صياد في رحلة صيده الأولى, تدور حول المكتب, تخترق عينيك وتهمس:
- يا لعينيك!

ترتد في مقعدك, تتكور, تكسوك الحيرة:

- ما بهما؟!

- أشياء وأشياء!

تضحك ضحكة قصيرة ساخرة, ترفع النَّظارة الطِّبية, تحدق في العدم:

obeikandi.com

- عيناي!

تأخذ النَّظارة من يديك, وتهمس:

- كم أحب النَّظر إليهما!

- عيناي!

تمسك طرف الخيط, فتسأل:

- وماذا أيضًا؟!

تضحك في مكر:

- يكفي هذا!

تنتفض:

- أرجوكِ أخبريني!

تشير سبابتها إليك:

- من منا يجب أن يعترف؟!

- لا يهم!

- لا تطمع!

- أنا أرض عطشى!

- أنت ساحر!

- أنا!

تتجه صوب المكتبة, تتأمل ملامحك في الواجهة, ترفع النَّظارة عن عينيك المرهقتين من قلة النَّوم مؤخرًا, تستكشف مكمن السَّحر فيهما, لا تجد غير

obeikandl.com

غبشة وإرهاق, تمسحهما بمنديل, تمسح العوينات, وتعاود الكرة في الزُّجاج المصلوب على الواجهة.

هي خلفك, تراقبك, لا تكاد تتمالك نفسها من الضَّحك.

تنتبه لبلاهتك, تستدير على عجل, تمتد يدك سريعًا, تُعدل النَّظارة على أرنبة أنفك.

تدمدم "مها":

- لن ترى مطلقًا ما أرى!

- لم أعد أرى شيئًا, قلبت حياتي رأسًا على عقب!

تضحك هي, تُردف أنت:

- من أين ظهرتي لي؟!

- نادم؟!

تشيح بيديك:

- خائف!

يرق صوتها:

- مني؟!

تهرب بعينيك:

- خائف أن أفقدك!

ترنو إليك أكثر:

- إلى هذه الدَّرجة!

- وأكثر!

obeikandl.com

تقترب أنت:

- **أنتِ لي!**
- **...**

obeikandl.com